تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

« بداية ونهاية » لنجيب محفوظ :

« بداية ونهاية » دليل مادى لا ينكر ، على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فنى كامل . لقد أتى على وقت ظننت فيه أن نجيب محفوظ قد بلغ غايته فى « زقاق المدق » ، وأنه لن يخطو بعد ذلك خطوة أخرى إلى الأمام . أقول غايته هو لا غاية الفن ، لأن « زقاق المدق » كانت تمثل فى رأى الظنون أقصى الخطوات الفنية بالنسبة إلى « إمكانياته » القصصية . ولهذا ، خيل إلى أن مواهب نجيب قد « تبلورت » هنا وأخذت طابعها النهائى وتوقفت عند شوطها الأخير . . ومما أيد هذا الظن أن « السراب » وقد جاءت بعد « زقاق المدق » كانت خطوة « واقفة » فى حدود مجاله المألوف ، ولم تكن الخطوة الزاحفة إلى الأمام !

كان ذلك بالأمس . . أما اليوم ، فلا أجد بدا من القول بأن « بداية ونهاية » قد غيرت رأيى فى « إمكانيات » نجيب ، وجعلتنى أعتقد أنه قد بلغ الغاية التى كنت أرجوها له ، غايته هو وغاية الفن حين كانت الغايتان مطلبا عسير المنال !

إننى أصف هذا الأثر القصصى الجديد لهذا القصاص الشاب ؛ بأنه عمل فنى كامل . هذا الوصف ، أو هذا الحكم ، مرده إلى أن أعماله الفنية السابقة كانت تفتقر إلى أشياء ؛ تفتقر إليها على الرغم من المزايا المختلفة التى تحتشد فيها وتحدد مكان صاحبها فى الطليعة من كتاب الرواية !

ماذا كان ينقص نجيب قبل « بداية ونهاية » ؟ ماذا كان ينقصه فى « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » و « السراب » ، لقد كان نجيب فى هذه الروايات الأربع ، يملك من الخطوط الفنية ما يتيح له أن يخرج « التصميم العام » للقصة وهو سليم فى جملته . ومع ذلك فقد كان ينقصه عنصر الالتزام الدقيق لحدود « الواقعية الأولى » فى عرض حوادث القصة وتوجيه حركات الشخوص . وأقول « الواقعية الأولى » لأن « الواقعية الثانية » كانت هى الساحة الكبرى التى دأب نجيب على أن يعرض فيها أكثر نماذجه البشرية !

إن الفرق بين هذين اللونين من الواقعية هو أن اللون الأول نقل « مباشر » لصور الحياة وطبائع الأحياء ، كما هى فى الواقع المحس الذى تلمسه العين وتألفه النفس . أعنى أن تكون الحادثة القصصية أو النموذج البشرى مما يقع كل يوم فى محيط اللاقطة البصرية والنفسية ؛ أعنى مرة أخرى أن يكون تمثلنا للحوادث والشخصيات تمثيلا شعوريا لا ذهنيا عندما نقارن بين حقيقتها على الورق وبين حقيقتها فى الحياة . هذا هو اللون الأول وهذه هى مظاهره ، أما اللون الثانى من الواقعية وهو ما نعبر عنه بـ « الواقعية الثانية » ، فهو التصوير « التقليدى » لا « الطبيعى » للحوادث اليومية والنزعات الإنسانية . أو هو تلك النسخة من الحياة التى يمكن أن نقول عنها إنها « قريبة » من الأصل ، ولا يمكننا القول بأنها « طبق » الأصل ، ونسخة كهذه مهما اقتربت من الواقع فهى نسخة « مقلدة » على كل حال . . وقد يكون الفن فى جوهره تقليدا للحياة ، ولكن رسالة الفنان هى أن يشعرنا بأن المشهد الذى يصوره أصيل لا أثر فيه للمحاكاة . وألا يترك لنا فرصة للشك فى أن هناك اختلافا بين الصورة الحقيقية والصورة المنقولة ، أو أن هناك حلقة اتصال مفقودة بين الواقع والمثال !

نجيب محفوظ فى أعماله الفنية السابقة هو ذلك القصاص الذى يمثل « الواقعية الثانية » فى الكثير الغالب من الأعيان . ولست أنكر أن « الواقعية الأولى » مجالا فى فنه ، ولكنه المجال « المحدود » تبعا لطريقته الفنية التى تغلب عليه فى كتابة القصة . هذه الطريقة الفنية أساسها أن نجيب مولع بأن يضع كثيرا من نماذجه البشرية تحت مجهر التحليل النفسى ، ليتخذ من سلوكها الإنسانى مادته الرئيسية فى تحليل ما يقع تحت المجهر من « حالات مرضية » ! قل إذا شئت إنه يطبق بعض الأصول من « علم النفس المرضى » على كثير من أبطال قصصه

« المنحرفين » ، وأنه تبعاً لهذا التطبيق يفرض على فنه أن يسير في خط اتجاه نفسي محدد تدور فيه الشخصية « المريضة » من البداية إلى النهاية ؛ تدور فيه بقوة الدفع « المرضية » التي تبرر سلوكها في محيط « الواقعية الثانية » . . من هنا يخرج نجيب بعض الشيء على منطق « الواقعية الأولى » ، لأنه يجبر حوادث القصة وحركات الشخوص على أن تسير نحو غاية معينة ، تحقيقاً لمنهجه الفني الذي يلتمس عند النتائج المادية تفسيراً للظاهرة النفسية أو تشخيصاً « للحالة المرضية » . وتشعر أن التشخيص النفسي لهؤلاء « المرضى » غير سليم في بعض الأحيان، ومرجع هذا الشعور إلى أن سلوكهم مفروض عليهم فرضاً ولا يملكون فيه حرية الاختيار !

هنا مفرق الطريق بين واقعيتين : « الواقعية الأولى » و « الواقعية الثانية » .. هذه صورة « تقليدية » للحياة كما قلت ، وتلك صورة « طبيعية » . وموقف الفن بينهما واضح عندما نضع أنفسنا أمام هذه الحقيقة ، وهي أن النموذج البشري في حدود الواقعية الأولى موجود في الحياة « بالفعل » ، وأنه في حدود الواقعية الثانية موجود في الحياة « بالإمكان » . . أي أننا إذا رجعنا إلى بعض الشخصيات التي رسمها الأستاذ محفوظ في أعماله الفنية السابقة ، وسألنا أنفسنا هل هي موجودة بيننا حقاً تروح وتجيء ، وتقع عليها العين وتدركها الحواس ، وتشعر نحوها بشيء من الألفة التي تخلق بيننا وبينها نوعاً من المشاركة الوجدانية ؟ إذا سألنا أنفسنا هذا السؤال فإننا ننتهي إلى هذا الجواب : وهو أنها غير موجودة « فعلا » ولكنها « ممكنة » الوجود ؛ أي أن وجودها غير متعذر لأن منطق الحياة يهضمه إذا « وجد » وكذلك طبيعة الأحياء . ومن هنا نلمس الفارق الدقيق بين كلمتين : (موجود) .. و (ممكن أن يوجد) ، وبالطبع لا يضيق الفن بالكلمة الأخيرة وإن كان يفضل الكلمة الأولى بلا مراء !!

هذا عنصر من العناصر الفنية كان ينقص نجيب محفوظ . وثمة عنصر آخر كان ينقصه ، وأعني به « التذوق الشعوري » الكامل للحياة . . هناك قصاص فهم الحياة حق الفهم وخبرها كل الخبرة ، ومع ذلك فهو يتذوقها بقدر معلوم لا يتناسب وخبرته العميقة وفهمه الأصيل ؛ فما هو الفارق بين طبيعة « الفهم » وطبيعة « التذوق » في حياة القصاصين ؟ لتوضيح هذا الفارق الفني نقول : إنك تفهم الشيء بعقلك ولكنك تتذوقه بشعورك ، أعني أن الفهم أداته الذهن الفاحص ، وأن التذوق أداته الإحساس الرهيف . . إنها طاقتان : طاقة عقلية وطاقة شعورية ، والذين قويت عندهم الطاقة الأولى وضمرت الثانية هم الذين تتوقد في نفوسهم شعلة الفهم ، وتخبو شعلة التذوق ، بالنسبة إلى كل قيمة من قيم الأشياء وكل معنى من معاني الحياة. إن هناك مثلا من « يفهم » قصيدة من الشعر ؛ يفهم فيها اللفظ والمعنى ، ويفهم فيها الوزن والقافية ، ويفهمها شرحا إن طلبت إليه الشرح والتفسير . ومع هذا كله فهو لا يستطيع أن « يتذوق » فيها الوحدة الفنية ، ولا الظلال النفسية ، ولا التجربة الكبرى وهي مصبوبة في بوتقة الشعور .. وقل مثل ذلك عن الذي يفهم « النوتة الموسيقية » للحن من الألحان ، ثم لا يتذوق جمال اللحن ، ولا يهتز فيه لروعة الإيقاع ، ولا يستجيب لأنغامه التصويرية !

إن فهم الحياة هو أن نفتح لمشاهدها أبواب العقل ، وأما تذوق الحياة فهو أن نفتح لتجاربها أبواب القلب .. إننا « نراها » هناك تحت إشعاع الومضة الفكرية ، و « نتلقاها » هنا تحت تأثير الدفقة الوجدانية ! وعلى مدار هذه الكلمات تستطيع أن تنظر إلى نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة .. إنك لا تستطيع أن تجرده من التذوق الشعوري للحياة ، ولكنه التذوق العابر الذي لا يتناسب وخبرته العميقة بها وفهمه الأصيل !

ويبقى بعد ذلك عنصر فني ثالث كان ينقص هذا القصاص المرهوب .. أتدري ما هو ؟ هو تلوين الأسلوب القصصي تلوينا خاصا يتلاءم وجو المشهد المصور ، أو طبيعة النموذج البشري المرسوم . . في القصة مثلا موقف إنساني يتطلب عند تصويره أسلوبا معينا تتوفر فيه لمسات الشاعرية ، وموقف آخر لا نحتاج فيه إلى مثل هذا الأسلوب الشاعري ، عندما نتناول اللامح المادية لمشهد من المشاهد أو لشخصية من الشخصيات ، بأسلوب السرد الفني المألوف الذي نحتشد له القدرة على التقاط الجزئيات ، وهناك موقف ثالث يفرض علينا أن نعالجه بأسلوب آخر هو

أسلوب التجريد والتحليل، حين تعترض طريقنا تلك اللحظات الزاخرة بألوان من الحركة الذهنية أو النفسية!

نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة يكاد يستخدم أسلوبا واحدا في تصوير شتى المواقف والسمات، وأعني به أسلوب الرد الفني المألوف .. مثل هذا الأسلوب إذا ارتضيناه في تلك المواقف المهيأة لتجسيد الملامح المادية المشاهد والشخوص، وتجاوزناه عنه في تلك المواقف الأخرى المخصصة لتسجيل الحركة الجائشة في الذهن أو المختلجة في الشعور، فإننا لا يمكن أن نسيغه بالنسبة إلى المواقف الإنسانية، لأنه يفقدها طابع الجو الشعرى الذى يجب أن تعيش فيه، هذا الجو الذى إذا فقدته تعرضت للجمود واعتراها الفتور!

كل من هذه العناصر الفنية الثلاثة التي كانت تنقصه بالأمس: عنصر الالتزام الدقيق لحدود «الواقعية الأولى»، وعنصر «التذوق الشعورى» الكامل للحياة، وعنصر «التلوين الخاص» للأسلوب القصصي؛ كل منها قد احتشد له اليوم في صورته القوية الرائعة في «بداية ونهاية»، وإذا هذه الرواية القصصية تعد في رأى النقد عملا فنيا كاملا لا مثيل له في تاريخ القصة المصرية . باستثناء «عودة الروح» لتوفيق الحكيم!!

«بداية ونهاية» قصة مصرية تمثل حياة أسرة . . أسرة تذوقت طعم الفقر وتجرعت ذل الفاقة، بعد أن فرقت بينها وبين عائلها تلك اليد التي تفرق بين الأحياء. والفقر وحده هو المسئول عن البناء الذى تصدع والشمل الذى تبدد، شمل الأسرة الكادحة التي كان للتضحية عند كل فرد من أفرادها طعم ومذاق... الأم، وحسين، وحسن، وحسنين، ونفيسة؛ كل نموذج من هذه النماذج البشرية التي كونت الهيكل الإنساني العام للقصة، قد فهم التضحية فهما خاصا وكانت له فيها وجهة نظر خاصة؛ وجهة نظر حددت الطريق وقررت المصير . كانوا فلاسفة حياة؛ فلاسفة أخضعوا الفلسفة لمنطق الشعور المحترق بلهب الحرمان، حتى خرج بعضهم من هذه الفلسفة وهو منحرف العقل مريض النفس، والفقر وحده هو المحور الرئيسي الذى دار حوله السلوك الإنساني لهؤلاء المرضى المنحرفين!

هذه الأم العظيمة كان عليها أن تكافح بعد موت الزوج لتخلق من هؤلاء الصغار رجالا يواجهون الحياة، وهؤلاء الأبناء الأربعة لم يكن لهم مورد في الحياة غير تلك الجنيهات الخمسة التي كانت تأتيهم من معاش الوالد الراحل؛ كامل افندى علي الذى أنفق في خدمة الحكومة زهرة العمر ونضارة الشباب! وماذا تفعل الجنيهات الخمسة لأسرة تواجه مطالب الحياة من مأكل ومسكن وملبس ومحافظة على المظهر القديم أمام الناس؟! هنا يبرز دور الأم . الأم الصابرة العاقلة الحازمة المكافحة في سبيل البقاء . لقد باعت أثاث البيت قطعة بعد قطعة لتسكت البطون الصارخة من وطأة الجوع، وهجرت «الشقة» التي كان يدخلها النور والهواء ولجأت إلى أخرى عشش فيها البؤس والظلام توفيرا لقروش معدودات، وقضى حسنين وحسين أيام الدراسة الثانوية بلا «مصروف» يوما يشعرهما بأن للحياة فرحة يستشعرها الصغار من الأحياء، ومضت نفيسة تطرق الأبواب لتحصل لهم على الأجر الضئيل الذى كان يأتيها من حياكة الثياب بين حين وحين، وهام حسن الذى دلله أبوه حتى طردته المدرسة ونبذته الحياة، هام على وجهه في الطرقات بحثا عن لقمة العيش من كل طريق غير شريف!

ودارت عجلة الزمن والأم العظيمة الصابرة ما زالت تكافح.. كانت الطريق طويلة، رهيبة، قد انتثرت على جانبيها الصخور. ومع ذلك فقد مضت في طريقها لا تلوى على شيء: يد تجفف العرق المتصبب من حرارة الكفاح، ويد تدفع إلى الأمام بالقافلة المكدودة التي أنهكها طول المسير! لقد كان هناك أمل.. أمل يتراءى على جنبات الأفق البعيد فينسيهم أنهم مشردون وإن ضمهم مسكن، عراة وإن سترهم ثوب، جياع وإن حصلوا على الرغيف . أمل يتمثل في الغد القريب الذى سيفتح عيني الأم الصابرة المكافحة على منظر فريد، تسعد فيه برؤية الصغيرين وقد أصبحا رجلين، يشغل كل منهما بعد الفراغ من التعليم مكانه المنتظر في دنيا الناس!

وجاء الغد المرتقب يحمل إليهم أول بشرى .. لقد ظفر

حسين بالبكالوريا والتحق بإحدى الوظائف فى مدينة طنطا . قبل الوظيفة الصغيرة ليستطيع أن يمد يد العون إلى أسرته . أخوه حسنين ، أمه ، أخته نفيسة ، كان من الظلم ألا يختصر طريقه فى الحياة ليخفف عنهم جزءا من أعباء الحياة . ترى أكان بحكمهم أن يصبروا على شظف العيش حتى ينتهى من دراسته العالية ؟ محال ! وحين اطمأنت نفسه إلى هذه الحقيقة أقدم على التضحية وهو سعيد مرتاح البال

لقد ضحى حسين بآماله المراض . . إن المصير الذى ينتظره لن يفترق عن مصير أبيه ، وهو مصير الألوف من الوظفين الصغار ! مستقبل محدود مظلم ولكنها فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان !

ونفيسة . . لقد ضحت هى الأخرى وكانت التضحية فادحة ، تحت بالشرف الغالى والعرض المصون . . كانت فقيرة ، ودميمة ، وأين هو الزوج المأمول وقد حرمت إلى الأبد عزة المال ونعمة الجمال ؟ رجل واحد يستطيع أن يقبلها زوجة وتعيش معه تحت سقف واحد ، رجل مضيع فى الحياة مثلها فقير دميم ! ولقد وجدت يوما هذا الرجل . . هذا الحيوان الذى استجابت له مرغمة تحت تأثير الحلم الجميل ، حلم كل عذراء قبيحة الوجه وجدت بعد طول انتظار من يقول لها إنك جميلة ، يا زوجة الغد القريب !

وسقطت نفيسة . . وفر الحيوان الذى سلبها الشرف وتركها وحيدة تواجه الخاتمة فى معركة المصير . وقالت لنفسها يوما : ماذا بقى لك يا بائسة ؟ لا مال ، ولا جمال ، ولا شرف . . هل بقى شئ تحرصين عليه ؟ هل هناك ذرة من أمل فى زوج جديد ؟ وحين قهقه فى أعماقها الجواب . . انطلقت تلبى رغبات الجسد عند كل عابر سبيل ! وأمها ، وإخوتها ، لا أحد يعلم بما انتهت إليه من ضياع . انحدار إلى الهوة السحيقة الرهيبة ولكنها فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان !

وحسن ، ذلك الشريد الهائم فى الطرقات . . ماذا فعلت به الأقدار ؟ لقد جاع . . جاع لأنه لا يصلح لأى عمل « نظيف » ، لقد فقد القدرة على أن يحيا حياة نظيفة ، مرتبة ، هادئة ، فيها أمن وفيها استقرار ! هناك فى الحياة خط سير يستطيع أمثاله أن يسلكوه . . خط سير يمج بالدروب والمنحنيات التى تختنق فيها الكرامة ، والشرف ، والفضيلة ، والإنسانية . . ثم ستختنق إلى الأبد ، ومثل ستذهب إلى غير معاد . . ولكن ستظهر بعدها اللقمة الدسمة التى تشبع كل معدة خاوية ، وسيقبل فى إثرها الثوب الجديد الذى ينعش كل جسد مهان ، وستخطر البسمة المشرقة التى تسعد كل شعور ملتاع ، وهذا هو خط السير الذى سلكه الفتى الشريد . . يتجر بالمخدرات ، ويعيش مع العاهرات ، ويالها من حياة . حياة ينكرها عليه الشرفاء من أسرته وفى طليعتهم أخوه حسنين ، ذلك الفتى الطموح الذى تخرج فى الكلية الحربية وأصبح ضابطا فى سلاح الفرسان !

من فيض هذه الحياة الآثمة الهابطة استطاع حسن أن يحاول من العدم حياة أخوين . . ساعد الأخ الموظف حتى استقر فى وظيفته ، ساعده بتلك الأساور الذهبية التى سطا عليها من بيت عشيقته ذات صباح ، ولولا التضحيات الهائلة التى قدمها لأخيه الضابط لما استطاع أن يسدد أقساط الكلية الحربية ، وأن يرتدى الحلة الأنيقة ذات النجمة الصفراء . . ومع ذلك يعيره الضابط الشريف بحياته الشائنة ، ويحاول جاهدا أن ينتشله من وهدة الإثم والهوان ! لقد انحرف حسن وحاد عن الطريق ، ولكنها فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان !

أما حسنين ، الملازم حسنين كامل على فقد كانت تضحيته من ذلك النوع النادر فى حياة البشر . كان فتى طموحا منذ نشأته الأولى فى « عطفة نصر الله » بحى شبرا ، تلك العطفة الحقيرة التى لم تحد من طموحه يوم أن كان تلميذا صغيرا بالمدرسة التوفيقية ! كان طموحا رغم فقره ، ورغم حاجته ، ورغم البيئة التى نشأ فيها ولم تكن توحى لأحد من أبنائها بأمل أو طموح . . إنه يقارن منذ أن صار ضابطا بين يومه وأمسه ، فيشعر بهول

الفارق بين حاضره وماضيه ! هذه العطفة الحقيرة التي شهدت أيام بؤسه وبؤس أسرته يجب أن تغادرها الأسرة إلى مكان بعيد ؛ مكان يدل على الماضي البغيض ستارا من النسيان . . حسبه أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أثاث بيتهم وهو يباع قطعة بعد قطعة ليعيشوا على الكفاف . وحسبه مرة أخرى أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أخته بغيسة وهي تسعى إلى كسب عيشهم بعد أن كلت قدماها من السير وتعبت يداها من طرق الأبواب . وحسبه مرة ثالثة أن تلك العطفة القذرة قد شهدت رجال البوليس وهم يقتحمون المسكن الذليل بحثا عن أخيه المجرم الطريد . . كل شيء قد قد يستطيع حسنين أن يصلحه إلا شيئا واحدا يتعذر به الإصلاح ، وهو أن يهتدي حسن إلى الطريق القويم ! لقد استطاع الفتى الطموح أن ينتقل بأسرته إلى مصر الجديدة ، وأن يرد إلى نفيسة كرامتها وكرامة الأسرة حين حال بينها وبين الهوان !

وهناك ، في ذلك المكان الجديد الآمن تنفس حسنين الصعداء . . لقد بدأت الحياة تبتسم بعد طول التجهم والعبوس ، حين انقطعت أخبار حسن الذي كان يهدد طموحه وسمعته ونظرته إلى المستقبل كلما فكر فيه ! و « بهية » ، تلك الفتاة التي أحبها في عطفة نصر الله وخطبها إلى أبويها وهو تلميذ صغير ؛ تلك الفتاة « البلدي » الفقيرة الساذجة لم تعد تصلح لأن تكون زوجة لضابط عظيم . . إن زوجة المستقبل وشريكة الحياة هناك في ذلك القصر الأنيق الذي ذهب إليه « خاطبا » منذ أيام . إنه يريد أن يقطع كل علاقة كانت تربطه بعطفة نصر الله ، ولو كان له في تلك العطفة حب قديم ، حب قضى بين أحضانه أجمل أيام العمر وأسعد لحظات الشباب !

لقد اختفى حسن ، واستقرت نفيسة ، وذهبت بهية ، وبقي أن يفتح القلب على مصراعيه ليستروح أنسام السعادة التي كان يحلم بها منذ بعيد . . ولكن القدر لا يريد للأسرة البائسة المسكينة أن تستريح ، ولا يريد للفتى الطموح الآمل أن يسعد بأحلامه وأمانيه ! لقد هوى بضرباته السريعة المتلاحقة على أحلام العمر فبعثرها مع الريح في كل طريق . لقد حيل بينه وبين حبه الجديد ، حين رفضت الأسرة العريقة المترفعة أن تصاهر ضابطا يتهامس الناس حول أخته ويتحدثون عن أخيه . وحين أفاق الملازم حسنين من الصدمة الأولى زلزلت كيانه الصدمة الثانية ، حين جيء إلى بيته بأخيه حسن محمولا تنزف منه الدماء ، وعليه أن ينتظر اللحظة الرهيبة المقبلة في أعقاب الشقين المجرم طريد القانون . . وأقبلت اللحظة الرهيبة المنتظرة ، حين طرق الباب رجل من رجال الشرطة ليستدعيه إلى قسم البوليس . حسن ! بالطبع ليس هناك غير حسن ، تلك السحابة السوداء في أفق ينذر بالغيوم . . وحوله ، حوله وحده ينتظره هناك سؤال وجواب !

وفي قسم البوليس وجد أخته الساقطة بدلا من أن يجد استجوابا عن أخيه الطريد . . لقد ضبطت نفيسة في بيت يدار للفساد !! وأظلمت الدنيا في عينيه وضاق الفضاء . . لقد فقد كل شيء : فقد حبه ، وفقد أمله ، وفقد سمعته ، وفقد في الحياة القصيرة التي ملأها بالأحلام كل حلم جميل ! وأخذ أخته وخرج إلى أين ؟ لا يدري فكره ولا تدري قدماه . . إن في أمواج النيل الحانية مثوى لكل بائس شريد منبوذ من الحياة ، هكذا قالت له نفيسة حين سألها أن تحدد لنفسها الطريق ! ومضت أمامه ومضى خلفها إلى هناك . . إلى حيث يتاح لليائسين أن يعرفوا طعم الراحة بعد طول العناء ! وقال الملازم حسنين لنفسه : لقد حكمت عليها بالإعدام فقبلت الحكم وهي راضية صابرة مستسلمة للقضاء . . وما كان أشجعها وهي تستقبل الموت وكأنها تستقبل الزوج الحبيب الذي قضت العمر تفتش عنه في دروب الأمل . . امرأة ضحت بأيام الحياة فرارا من قسوة الحياة ، وأنت ؟ أنت يا رجل ، ماذا تنتظر ؟!

ترى هل كان الملازم حسنين شجاعا حين لحق بنفيسة ، أم كان جبانا حين فر من لقاء الناس ؟ مهما يكن من شيء فقد كانت تضحيته فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية في كثير من الأحيان !

أنور المعداوي